الإمام يوسف القرضاوي

السنة ومواجهة حملات التشكيك

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٣٩٠٣٧٤٦

محاضرات الإمام يوسف القرضاوي
السنة ومواجهة حملات التشكيك
الإمام يوسف القرضاوي
الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٦٤ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع ٢٠١١/٩٢٨٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-313-5

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to The Auther And Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher And Auther.

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد
إدارة الشئون الفنية

القرضاوي، يوسف.
السنة ومواجهة حملات التشكيك / يوسف القرضاوي.-
القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١١
٦٤ ص؛ ١٤ سم
تدمك ٥ ٣١٢ ٢٢٥ ٩٧٧
١- السنة.
أ- العنوان.

٢٣٠

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
١٨ شارع العباسية - القاهرة. ت: ٢٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة ومواجهة حملات التشكيك[1]

الحمد لله رب العالمين ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومَن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له،وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، ومَن دعا بدعوته ، واهتدى بسنَّته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

خير ما أحيِّيكم به أيها الأخوة والأبناء ، تحية الإسلام ، وتحية الإسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(وبعد)

الإسلام يُغْزَى ويُهَاجَم في عقر داره :

فقد شاء الله لنا في هذا العصر أن يكون موقفنا موقف الدفاع ، فقد أصبحنا نُغْزَى ولا نَغْزُو ، ونُهَاجَم ولا نُهَاجِم ،

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في مركز الدعوة والإرشاد السعودي في الدوحة، وقدم لها فضيلة الشيخ عبد التواب هيكل حفظه الله وشفاه ، وقد ألقيت هذه المحاضرة ارتجالا .

نُهاجَم في عقرِ دارنا ، ونُهاجَم من قومنا ، من قوم من بني جلدتنا ، ويتكلَّمون بألسنتنا ، وأصبح علينا بين الحين والحين أن نتصدَّى لهذا الغزو والهجوم من الداخل والخارج ، ولو كان المسلمون يفقهون ما استحقَّت هذه الأمور أن ندافع عنها ، لأنها أشياء معلومة فعلاً من الدين بالضرورة ، ولكننا للأسف في عصر قد طغى فيه الجهل ، وغلب فيه الغزو الفكري ، حتى أصبح مَن ينتسبون إلى الإسلام في ديار الإسلام يجهلون أُسس الإسلام ، ويجهلون بديهيات الإسلام ، وأوليَّات الإسلام ، ولهذا كان علينا أن نقف لنوعِّي ونبصِّر ونسلِّح الجيل المسلم الجديد الملتزم بالإسلام ، كيف يردُّ على هؤلاء المتهجِّمين على الإسلام قرآنه وسنته .

تعرض السنة للطعن والتشكيك من أعداء الإسلام :

إن السنة قد تعرَّضت من قديم لحملات تشكيك وطعن من خصوم الإسلام ، والله تعالى قد حفظ القرآن ، مكتوبا بين الدفَّتين ، متلوًّا بالألسنة ، محفوظًا بالصدور ، مقروءًا بالمصاحف ، ولم يعُد هناك مَن يجرؤ على التطاول على القرآن ، ولكن دخلوا دائمًا من السنة ، واتَّخذوا منها تُكئة للتطاول على الإسلام ، إلا أن الله تعالى في كلِّ عصر قيَّض أولئك العدول من حملة العلم ، الذين قال فيهم ﷺ : « يحمل

هذا العلم من كلِّ خَلَف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1].

قيل لعبد الله بن المبارك الإمام المحدِّث الثقة الفقيه المجاهد الزاهد : هذه الأحاديث الموضوعة ! قال : تعيش لها الجهابذة[2]. جهابذة العلم الذين يكشفون زيفها ويفضحونها ، ويبيِّنون حقيقتها للناس ، يعيش لها الجهابذة ، وهكذا كان الجهابذة في كلِّ عصر من العلماء العدول ، الذين يحملون هذا العلم حمل الوعاة الدعاة ، وحمل الأمناء الرعاة ، لا حمل الأدعياء ولا الدجالين ، تعرَّضت السنة من قديم لحملات ، ولكن الله تعالى هيَّأ مَن يدافع عنها في كلِّ عصر ومصر .

في عصرنا وجد هؤلاء بين الحين والحين يظهر فرخ من فروخ الاستعمار الثقافي والاستشراقي والتنصيري ، يظهر بصورة أو بأخرى ، ليؤلِّف كتابًا ، أو يكتب في صحيفة يثير الغبار حول هذا المصدر العظيم السنة ، التي هي بيان للقرآن ،

---

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٣٢) ، وابن بطه في الإبانة (٣٣) ، وابن عبد البر في شرف أصحاب الحديث صـ ٢٩ ، وقال عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الشرعية (٣٤٢/١) : قال يحيى بن معين : ما روى إسماعيل عن الشاميين فهو صحيح . ومعان هذا شامي دمشقي ، وصححه الألباني في صحيح في مشكاة المصابيح (١٨٥٣) .

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (١٠٣/١) .

ولا يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة ، لأن السنة تحتاج إلى البيان ، كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٩)، والمبيِّن هو النبي ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) ، فالسنة هي التفسير النظري والتطبيق العملي ، والبيان المفصَّل لكتاب الله تبارك وتعالى ، ولذلك قيل للتابعي الجليل مُطرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير : قال له بعض الناس : حدِّثونا بالقرآن . قال : والله ما نبغي بالقرآن بديلا ، ولكنا نريد مَن هو أعلم به منا[1] . يعني رسول الله ﷺ . مَن أراد أن يعرف القرآن فليعرفه ممَّن أُنزل عليه ، ومَن هو أعرف الناس بمراد الله منه ، وهو رسول الله ﷺ .

تعرَّضت السنة لحملات كثيرة ، فهيَّأ الله مَن يدافع عن السنة ، هناك مَن ألَّف كتابًا في الهجوم على السنة ، مثل كتاب (أضواء على السنة المحمدية) وكتاب (فجر الإسلام) ، الذي نقل فيه عن المستشرقين ، وأضاف بعض ما كتبوه إلى نفسه ، وبعض ما كتبه إليهم ، وجاء ابنه اليوم ليهاجم السنة من جديد ، والولد سرُّ أبيه ، ومَن يشابه أباه فما ظلم ، ولكنه زاد على أبيه .

---

(١) مفتاح السنة للسيوطي صـ٣٥، ٣٦ .

وجدنا هذا الذي رددنا عليه في العام الماضي حينما تكلَّم عن السنة والبدعة ، وادَّعى أن استنكار البدعة موقف جاهليٌّ ، ثم نراه أيضًا يهاجم القرآن نفسه ، كما رأيناه يهاجم الحدَّ القطعي المذكور في سورة المائدة وهو قطع يد السارق : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٨) ، مما يدلُّ على أن هؤلاء إذا سلَّمنا لهم بشيء فإنهم يقفزون على ما هو فوقه .

هم يقولون : الفقهاء ، والفقه هو اجتهاد بشر . فإذا سلَّمنا لهم بهذا ذهبوا إلى السنة ، وقالوا : خبر الآحاد . فإذا سلَّمنا لهم بمهاجمة سنن الآحاد ، لا يكتفون بذلك ، ويهاجمون السنن المتواترة ، فإذا سكتنا عن ذلك ، هاجموا القرآن نفسه ، إنهم لا يقفون عند حدٍّ . وللأسف نرى هؤلاء وقد فُتحت لهم أبواب الإعلام على مصاريعها ، يكتبون الكتب وينشرونها ، وتعطى كتبهم الجوائز ، ويكتبون في الصحف السيَّارة ولا يجدون مَن يرد عليهم .

هناك جهات إسلامية : جامعات إسلامية ، مراكز إسلامية ، مجامع إسلامية من شأنها أن تردَّ على هؤلاء ، وأن تذود عن القرآن والسنة ، ولكنا للأسف لم نجد مَن يتحمَّل هذا ، ويذبُّ عن سنة النبي محمد ﷺ ! وجدنا واحدًا منهم فقط لما كتب

كاتب يتَّهمهم بالرشوة أو بغيرِ ذلك ، قام يردُّ ويدافع عمَّن معه ، ولما هُوجِم القرآن وهوجِم الحكم الشرعي القطعي وهوجمت السنة لم نجد مَن يرد عن رسول الله ﷺ من هؤلاء!! فلا عجب أن يطمع فينا الطامعون ، ويتغلَّب علينا المتغلِّبون ، فنحن نُغْزَى في عقر دارنا .

واجبنا نحو السنة النبوية :

لذلك كان لزامًا علينا أن نكشف عوار هؤلاء المزيِّفين المضلِّلين ، الذين يتعالمون وليس لهم من العلم في شيء ، مشكلة هؤلاء أنهم مغرورون ، عندهم قشور من العلم جمعوها من هنا وهناك ، ولبَّسوا على الناس ، وموَّهوا على العامة ، موَّهوا عليهم أنهم قُرَّاء مثقَّفون مطَّلعون . وفي الحقيقة أنهم ليسوا مطَّلعين ، إنهم حاطبو ليل ، إنهم يجمعون بين الغثِّ والسمين من هنا وهناك ، يردُّون البخاري ، ويأخذون من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ! ما هذا العلم ؟ ما هذا العلم الذي ليس له خِطام ولا زمام ؟ إنه علم ليس له منهج ولا قاعدة ، يأخذ من المرويات ما يروق له وإن كان ضعيفًا في سنده ، ويردُّ ما لا يروق له وإن كان في أصحِّ الصحاح! كيف تحاكم هؤلاء الذين يهاجمون السنة ، ويهاجمون الأحاديث ؟

والسؤال : لماذا هذا كلُّه ؟ في الحقيقة أن السنة هي الإسلام المفصَّل ، هي المنهاج التفصيلي لحياة الإنسان المسلم ، وحياة الأسرة المسلمة ، وحياة المجتمع المسلم ، القرآن تضمَّن القواعد الكلية والمبادئ العامة . ولكن الذي تضمَّن الحياة الإسلامية ، منهاج الحياة الإسلامية هي السنة ، هي التي فصَّلت لنا الأحكام الإسلامية : الأحكام الشرعية ، الأحكام الخُلُقية ، أحكام الآداب والسلوك ، آداب الأكل والشرب ، والقيام والجلوس ، والنوم واليقظة ، والسفر والحضر .

رسمت السنة منهاج الحياة الإسلامية ، وبهذا المنهج يتميَّز المسلم عن غيره ، ويتميَّز المجتمع المسلم عن غيره ، ولهذا كانت نقمة هؤلاء على السنة أكثر من غيرها ، فإذا انهدمت السنة فماذا يبقى من الإسلام؟ حتى الصلاة لا نستطيع أن نصلي ، فالقرآن لم يأتِ لنا بتفصيل الصلوات ، لم يقل لنا : إنها خمس صلوات . ولم يقل لنا : إن الصبح ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر أربع ركعات ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . ولم يبيِّن لنا المواقيت ، ولم يبيِّن لنا ما نقول في كلِّ ركعة ، هذه الصلاة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم عرفناها من سنة النبي ﷺ ، فقد روى أبو نضرة قال : كنا عند عمران بن حصين رضي الله عنه ، فكنا نتذاكر

العلم . فقال رجل : لا تتحدَّثوا إلا بما في القرآن . فقال له عمران : إنك لأحمق ، أوجدتَ في القرآن صلُّوا الظهر أربع ركعات ، والعصر أربعا لا تجهر بالقراءة في شيء منها ، والمغرب ثلاثا تجهر بالقراءة في الركعتين منها ، ولا تجهر بالقراءة في ركعة ، والعشاء أربع ركعات تجهر بالقراءة في ركعتين منها ، ولا تجهر بالقراءة في ركعتين ، والفجر ركعتين تجهر فيهما بالقراءة[1] .

وكذلك الصيام ، وكذلك الزكاة ، وكذلك الحج ، وكذلك تفاصيل المعاملات ، وتفاصيل الحياة عرفنا كلَّ ذلك من السنة ، ولذلك إذا انهدمت السنة انهدم معها الإسلام ، هؤلاء أصبحوا الآن يوجِّهون حملاتهم إلى السنة يشكِّكون في ثبوتها ، حملات على السنة من حيث ثبوتها ، حملات على السنة من حيث حجيَّتها ، حملات على السنة من حيث دلالتها ومضمونها .

من حيث ثبوتها يشكِّكون فيها ، يقولون : اختلط فيه الصحيح بالضعيف ، والمقبول بالمردود ، والحسن بغير الحسن ، وقد وضع الوضَّاعون أحاديث ، فما عدنا نعرف هذا

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي (٢٠٤٧٤) ، والبيهقي في الصلاة (٣١٩٣) .

من ذاك . كأنهم يريدون أن يهيلوا التراب على تاريخ هذه الأمة ، وتاريخ علمائها الذين تصدَّوْا للوضَّاعين وكشفوهم وغربلوا الأحاديث ، ووضعوا القواعد ، وأصَّلوا الأصول ، ولم يعُد هناك مجال أن يوجد حديث موضوع يدخل على علماء الأمة ، وينطوي عليهم ويقبلونه ويروونه في كتبهم على أنه من دين الله ومن شرع الله ، لم يعُد هذا ممكنًا ، علماء الأمة اشتغلوا في هذا واجتهدوا عليه . هم يقولون : إن السنة لا يوجد لها ما يدلُّ على ثبوتها .

ومن ناحية أخرى حتى لو ثبتت ليست حجَّة ؛ لأن النبي ﷺ كان بشرًا من البشر ، يقول ويفعل بطبيعته البشرية ، وبطبيعته العربية ، وبتجاربه وعاداته . وقد قال : «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] . وبعضهم يريد أن يهدم بهذا الحديث كلَّ ما جاء في شؤون الحياة وفي شؤون الآداب ، وفي شؤون المعاملات ، وفي شؤون الاقتصاد ؛ لأننا أعلم بشؤون دنيانا .

ويشككون في مضمون السنة في الآداب التي تتضمَّنها السنة ، ما معنى أن يأتي حديث ويقول لك : كل باليمين ولا تأكل بالشمال ، واشرب باليمين ولا تشرب بالشمال ، وادخل المسجد برجلك اليمنى واخرج منه برجلك اليسرى ،

---

(١) رواه مسلم في المناقب (٢٣٦٣)، وأحمد (١٢٥٤٤)، عن أنس .

وإذا لبست النعل فالبس اليمنى أولا ، ما هذا الكلام؟ حتى مضمون السنة أصبحوا يشكِّكون فيه !

أسباب الطعن والتشكيك في السنة :

في الحقيقة حصرت هذه الأسباب والدوافع التي دفعتهم لهذه الحملة على السنة إلى أسباب عديدة :

السبب الأول : الجهل

هؤلاء المتعالمون جهلة ، هم جهلة بالسنة ، وجهلة بالقرآن ، وجهلة بالتاريخ ، وجهلة بعلماء هذه الأمة ، هم جهلة بهذا كلِّه ، ولذلك يقولون كلامًا عجيبا . لو رجعوا إلى القرآن لعلموا أن القرآن نفسه هو الذي يدعو إلى اتباع السنة : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾

(آل عمران: ٣١) .

ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩) .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ (النور: ٥٤).

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) .

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء: ٨٠).

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(الحشر: ٧).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦) .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(النور: ٥١) .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥) ، وآيات وآيات ، هؤلاء لو عقلوا ورجعوا إلى القرآن الكريم لوجدوا أن القرآن نفسه هو الذي يدعوهم إلى طاعة رسول الله ﷺ واتباع ما جاء به ؛ لأن النبي ﷺ هو المبيِّن عن الله مراده ، فهؤلاء جهلة بالقرآن .

وهم كذلك جهلة بتاريخ هذه الأمة ، يقول صاحب هذا الكتاب اسمه (دليل المسلم الحزين) حسين أحمد أمين : بدأ

الناس يبحثون عن السنة في القرن الثاني؛ ليرفعوها إلى مصافِّ الأحكام القرآنية الإلهية . يقول هذا ، مع أن الصحابة منذ عهد النبي ﷺ كانوا يبحثون عن السنة ، كان أبو بكر رضي الله عنه إذا لم يجد شيئًا في مسألة في كتاب الله يقول : هل منكم مَن سمع شيئًا من رسول الله؟ أو عرف أن رسول الله ﷺ قضى فيها بكذا ، فإذا كان قال له : نعم . كما في مسألة الجدَّة قضى لها بالسدس عملا بفعل رسول الله ﷺ ، جاءت إحدى الجدَّات في خلافة رضي الله عنه ـ بعد موت حفيدها ـ تطلب نصيبها من تركته ، فقال لها أبو بكر : ما أجد لك في كتاب الله شيئا ، وما علمت رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا . ثم سأل الناس ، فقام (المغيرة بن شعبة) فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السدس . فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه [1] .

وكذلك كان عمر رضي الله عنه يقول : هل منكم مَن رأى أو سمع من النبي ﷺ؟ فعن أبي سعيد الخدري ، يقول : كنت جالسا بالمدينة في مجلس الأنصار ، فأتانا أبو موسى فزعا

---

(١) رواه أحمد (١٧٩٧٨) ، وقال مخرجوه : صحيح لغيره ، وأبو داود (٢٨٩٤) ، والترمذي (٢١٠١) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٢٧٢٤) ، والنسائي في الكبرى (٦٣٠٥) ، جميعهم في الفرائض .

أو مذعورا قلنا : ما شأنك؟ قال : إن عمر أرسل إليَّ أن آتيه ، فأتيت بابه فسلمت ثلاثا فلم يرد عليَّ فرجعت فقال : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إني أتيتك ، فسلمت على بابك ثلاثا ، فلم يردوا عليَّ ، فرجعت ، وقد قال رسول الله ﷺ «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له ، فليرجع» فقال عمر : أقم عليه البينة ، وإلا أوجعتك . فقال : أبي بن كعب : لا يقوم معه إلا أصغر القوم ، قال : أبو سعيد : قلت أنا أصغر القوم ، قال : فاذهب به[1] .

وقد كتب رضي الله عنه إلى شريح القاضي يقول له : إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقضِ به ، ولا يلفتنَّك الرجال عنه ، فإن لم يكن في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وكان في سنة رسول الله ﷺ فاقضِ به ، فإن لم يكن في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ولا في سنة رسول الله ﷺ ، فاقضِ بما قضى به أئمة الهدى ، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا في ما قضى به أئمة الهدي ، فأنت بالخيار إن شئتَ أن تجتهد رأيك ، وإن شئتَ أن تؤامرني ، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك[2] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في البيوع (٢٠٦٢) ، ومسلم في الآداب (٢١٥٣) .

(٢) رواه النسائي في آداب القضاة (٥٣٩٩) ، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٤١٤) .

وكان ذلك شأن أصحاب النبي ﷺ جميعا ، إذا لم يجدوا شيئًا بيِّنًا صريحًا في القرآن يبحثون في السنة ، وجمعوا الناس ، وسألوا الناس ، وإذا وجدوا مَن يدلُّهم على حديث رجعوا إليه ، ولم يجادلوا في شيء من هذا .

لما جاء عبد الرحمن بن عوف وذكر لعمر أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر ، وكان رضي الله عنه مترددًا في أمر المجوس كيف يعاملون؟ أيعاملون معاملة الوثنيين ، أم معاملة أهل الكتاب؟ فذكر له عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر وقال : «سنُّوا بهم سنَّة أهل الكتاب»[1] . وهكذا في أمور كثيرة كانوا وقافين عند كتاب الله ، رجَّاعين إلى سنة رسول الله ﷺ ، مَن يقرأ التاريخ ويرجع إليه يجده واضحًا تمام الوضوح .

وقال صاحب هذا الكتاب أيضًا : استطاع الناس أن يُركِّبوا أحاديث ، العلماء ، والفقهاء يركِّبون أحاديث وينسبونها للنبي ﷺ . معنى ذلك : أن السلسلة الذهبية قد ركَّبها واحد من الناس ، والسلسلة الذهبية عند الإمام البخاري والتي تعتبر

---

(١) رواه مالك في الزكاة (٦١٦) رواية يحيى الليثي ، والشافعي في الجهاد (٤٣٠) ، ترتيب السندي ، البيهقي في الجزية (١٨٩/٩) ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٦١/٦) : منقطع مع ثقة رجاله .

أصح الأسانيد هي : مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر . فيأتي مَن يقول: أي إنسان يستطيع أن يأتي بالسلسلة الذهبية ويقول: حدثني مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال كذا . . فالمسألة سهلة ، مَن يريد سلسلة ذهبية أتيتُ له بها ، كأن الأمر في غاية البساطة .

هؤلاء يجهلون تاريخ هذه الأمة ، مَن يقول هذا الكلام لم يعرف كيف كان الحديث يُرْوى ، هل هذا العلم يصدر من إنسان في عُرض الطريق؟ لا ، هذا العلم حلقات علمية ، حلقات متصلة ، يأخذ فيها بعضهم عن بعض ، لو جاء إنسان من عُرْضِ الطريق وقال : سمعتُ مالكًا ، عن نافع ، عن ابن عمر . هل يقبل منه؟! لا ، لا يُقبل منه حتى تتوافر فيه عدَّة شروط ، وهي :

الشروط التي تقبل بها الرواية :

١- أن يكون معروف العين والحال :

فرواية المجهول لا تُقبل ، مجهول العين أو مجهول الحال ، مجهول العين هو الذي لا يعرف من هو . عندما يأتي إنسان ويقول : حدثني (عبد الله بن عبد السميع) . مَن هو عبد الله ابن عبد السميع هذا ؟ فمَن يقول هذا لا بدَّ وأن يجيب مَن هو (عبد الله بن عبد السميع) هذا ؟ لا بد أن يجيب ويقول : هو

الذي ولد في مكان كذا ، ونشأ في بلد كذا ، وكان من شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم فلان وفلان ، وأخذ عنه فلان وفلان من العلماء . يعدِّد شيوخه وتلاميذه ، ويذكر البلاد التي رحل إليها وطلب العلم من شيوخها ، وهذا علم يسمَّى علم الرجال . اهتمَّت به الأمة من قديم ، وفي تاريخ الرجال كلُّ واحد معروف ، ولا يكفي أن يخبر بما يفيد أنه معروف العين ، لا بدَّ أن يكون معلوم الحال أيضًا ، من ناحية سلوكه وسيرته ، فلا بدَّ أن يكون ذلك معروفًا ، فلو قال فلان : عن رجل . أو قال : عن ثقة . نقول له : لا ، لا بدَّ أن تقول : مَن هو هذا الثقة ؟ فقد يكون ثقة عنده وليس ثقة عند غيره ، حتى ولو قال ذلك أكبر الأئمة ، يقال له : لا . فقد يكون حجَّة عنده وليس حجة عند غيره . لا بدَّ أن يبيِّن مَن هو هذا الثقة؛ لأنه قد يوثِّقه بعض الناس ويجرِّحه آخرون . وهناك قاعدة تقول : الجرح يُقدَّم على التعديل ، إذا كان الجرح مُفَسرا . أي معروف الأسباب .

فلا بد أن يكون الشخص معروف العين ،ومعروف الحال .

٢- أن يكون عدلاً :

أي متَّصفًا بالعدالة ، والعدالة هي مَلَكَة التقوى ، أن يكون الشخص مؤتمنًا على الرواية في دين الله ، لا يرتكب كبيرة ،

ولا يصرُّ على صغيرة ، ولا يرتكب عملا يخلُّ بالمروءة . تصوَّروا حتى ولو كان تقيًّا ولكنه يفعل أفعالاً تخلُّ بالمروءة ؛ كأن يبول في الطريق ، أو يأكل في الطريق ، أو يمشي عاري الرأس ، فقد كان عندهم كشف الرأس مما يُسقط المروءة ، فكلُّ هذه الأشياء مما تُسقط المروءة عن الإنسان ، الأكل في الطريق ليس حرامًا ، ولكن لا يليق بأكابر الناس ، فمثل هذا إذا روى حديثًا لا يُؤخذ عنه .

٣- أن يكون ضابطًا :

لم يكتفِ العلماء بالعدالة ، هذه الصفة الدينية الخُلُقية ، ولكنهم يقولون : لا بدَّ من الضبط . العدالة والضبط ، بل ليكون الحديث صحيحًا لا يكتفون بمجرَّد الضبط ، بل بتمام الضبط ، أي أن يكون في المرتبة العليا من الضبط ، يعني بالتعبير الجامعي لا بدَّ أن يكون ألفًا أو باء ، أي إما أن يكون ممتازًا أو جيِّد جدًّا ، هذا ليكون الحديث صحيحًا ، فإذا لم يبلغ هذا كان حديثه حسنًا ، في درجة الجيد أو المقبول ، أما أن يكون دون ذلك ، فلا . لقد وضعوا مراتب ، وقواعد للجرح والتعديل لتقويم كلِّ راوٍ ، فإذا كان هناك خلاف في تقويمه يُذكر هذا الخلاف ، فَيُعْرَفُ المتَّفق عليه من المختلَف فيه .

٤- **ألا يكون الحديث شاذًّا :**

ثم إنهم يشترطون أمرًا آخر ، ألا يكون هذا الحديث شاذًّا ، يعني : ألا يخالف الثقة مَن هو أوثق منه . لا يخالف عدد أكبر من الرواة ، أو يخالف مَن هو أقوى منه في الأخذ عن هذا الشيخ ، أو نحو ذلك .

٥- **ألا يكون معلَّلاً بعِلَّة قادحة :**

كذلك اشترط العلماء لقَبول الحديث ألا يكون فيه عِلَّة قادحة في سنده أو متنه ، ولو كان سنده في ظاهر الأمر مقبولا . كلُّ هذه شروط ذكروها ، فكيف يُقال بعد ذلك : يأتي أي إنسان ويقول : حدثني مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر . دون أن نقول له مَن أنت ؟ وكيف حدَّثك مالك ؟ من أيِّ أصحابه أنت ؟ من أصحابه المدنيين ، أمن أصحابه المكيين ، أم من أصحابه المصريين ؟ وكيف حدَّثك أنت ولم يحدِّث أحدًا من أخصِّ تلاميذه ؟

حتى ولو جاء واحد وفعل ذلك ، ونظروا فيه ووجدوا أنه عدل مشهود له ، وهذا لا يحدث لأن سنَّة الله تعالى اقتضت أن يفضح الكذَّابين ، سنة من سنن الله كما قيل : غشُّ القلوب يظهر على صفحات الوجوه ، وفلتات الألسن[1]. وكما قال الله

---

(١) ذكره الأبشيهي في المستطرف صـ ٧١ .

تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ (محمد: ٣٠) ، وكما قال زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلم

فلو فرض أن واحدًا استطاع بكلِّ الحيل أن يخفي شخصيَّته وهو كذَّاب ولم يعرفه أحد ، لا ممن حوله ، ولا من شيوخه ، ولا من تلاميذه ، وقال : حدثني مالك . وجاء بشيء لم يعرفه أحد ، فهذا هو الحديث الشاذ؛ لأنه خالف كلَّ الرواة ، بل هو أشذ الشذوذ . والعلماء يعبِّرون عن هذا بقولهم : حديث غريب . ويقولون أيضًا : جاء بحديث لا يُتَابع عليه . أي لم يتابعه راوٍ آخر ، ولا ثقة آخر ، وإذا كثُر منه هذا وذكر أكثر من حديثٍ قالوا : يأتي بالغرائب ، أحاديثه لا يتابع عليها .

ومن تتبَّع كتب الضعفاء مثل الكامل لابن عدي ، أو ميزان الاعتدال للذهبي ، أو غير ذلك من الكتب ، يجد هذه العبارة التي تعني أنه يأتي بالغريب من الأحاديث ، أحاديثه غريبة ، لا يُتَابع عليها ، فيرفض هذا ويُرَد ، فكيف يتصوَّر هؤلاء أن هناك مَن يُركِّبُ الإسناد ، ولا يكشف وضعه وكذبه .

هذا يجوز عند العامة ، وهذا كان يفعله القُصَّاص ، يذهبون إلى المساجد والعوام ، ويخترعوا من الأسانيد ما يشاءون ؛ لأن العوام يصدِّقون ما يُقال لهم . كما نرى في عصرنا هذا ،

مثل وصية الشيخ أحمد حامل مفاتيح الحرم النبوي ، رأى النبي ﷺ في المنام وقال له كذا . . وعلى كل مَن قرأ هذه يكتب منه ثلاثين نسخة ويوزِّعها ، وإلا حصل له كذا . . وقد قرأها فلان ولم يوزعها فحصل له كذا[1].

وهذا كلام يصدِّقه العوام ، وأنتم تعرفون قصة الإمام أحمد ويحيى بن معين ، حينما صلَّى أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين في مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاصٌّ فقال : حدثني أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : حدثنا عبد الرزاق ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ قال : « مَن قال لا إله إلا الله . خلق الله من كلِّ كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان » . واستمر يذكر في هذا الحديث نحواً من عشرين ورقة ، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ، ويحيى ينظر إلى أحمد ، فقال : أنت حدَّثتَ بهذا ؟

فقال : والله ما سمعت بهذا إلا الساعة . فلما انتهى أشار إليه يحيى فجاء متوهِّمًا نوالاً ، فقال له يحيى : مَن حدثك بهذا ؟

قال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين .

---

(١) انظر : كتابنا فتاوى معاصرة (٢٠١/١) ، طبعة دار القلم ، الطبعة السادسة ، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

فقال يحيى : أنا يحيى وهذا أحمد ، ما سمعت بهذا قط في حديث رسول الله ، فإن كان لا بدَّ فعلى غيرنا .

فقال القاصُّ : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، ما تحقَّقتُه إلا الساعة .

فقال له يحيى : وكيف؟

فقال : أليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ؟ لقد كتبتُ عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين .

فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم . فقام كالمستهزئ بهما[1].

هذا الكلام يروج عند العامة ، ولا يروج عند العلماء ، لو ذهب إلى حلقة علم وقال فيها هذا الكلام ، مثل هذا يضرب بالنعال . العلماء لهم معاييرهم وموازينهم ، والقُصَّاص لهم طريقهم ، وقد أَلَّف العلماء في هذا للتحذير منهم ، الإمام السيوطي له كتاب (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) ، حتى في الخليج عندهم تعبير يدلُّ على كذب هؤلاء القُصَّاص : فلان قَصَّاص . يعني يكذب ، أما العلماء فلا يتصوَّر ذلك منهم .

---

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٥٠٥) .

ومن العجيب أن هذا الرجل يقول : إن هـذه (الفبركـة) في الأحاديـث تصـدر مـن الفقهـاء ! الفقهـاء يكـذبون ، الفقهـاء يختـرعـون أحاديث عـن رسـول الله ﷺ ! مَـن مـن الفقهـاء ؟ أبو حنيفة ، أنتم قلتم : إن أبا حنيفة لم يثبـت عنـده إلا سـبعة عشر حديثًا[1]. في بعض المجلات عندما يريـدون أن يطعنـوا في السنة يقولون : إن أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا سـبعة عشـر حديثًا . وهذا كذب وافتراء .

وقد ردَّ على هؤلاء ابن خلدون في مقدمته ، فقال : (وقد تقوَّل بعضُ المبغضين المتعسفين ، إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلَّت روايته! ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة ؛ لأن الشريعة إنما تُؤخذ من الكتاب والسنة . ومَن كان قليل البضاعة من الحديث ، فيتعيَّن عليه طلبه وروايته والجِد والتشمير في ذلك ، ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ، ويتلقَّى الأحكام عن صاحبها المبلِّغ لها . وإنما قلَّل منهم مَن قلَّل الرواية ؛ لأجل المطاعن التي تعترضه فيها ، والعلل التي تعرض في طُرُقها ، سيما والجرح مقدَّم عند الأكثر ، فيؤدِّيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه ، من الأحاديث وطرق الأسانيد . ويكثر ذلك فتقلُّ

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ٥٦١ .

روايته لضعف في الطرق . . . والإمام أبوحنيفة إنما قلَّت روايته لما شدَّد في شروط الرواية والتحمُّل ، وضعَّف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي . وقلَّت من أجلها روايته ، فقلَّ حديثه . لا أنه ترك رواية الحديث متعمِّدا ، فحاشاه من ذلك . ويدلُّ على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث : اعتماد مذهبه بينهم ، والتعويل عليه ، واعتباره ردًّا وقَبولا)[1].

فهم خطفوا الكلام وأخذوا بعضه وتركوا البعض .

مَن من الفقهاء الذي كان يركب الأسانيد ويختلق الأحاديث؟ أبو حنيفة أم مالك؟ الإمام مالك الذي كان قبل أن يحدِّث عن رسول الله ﷺ يتوضَّأ ويتطيَّب ويجلس ، وعندما يحدِّث عن رسول الله ﷺ تأخذه رعدة ، تعظيمًا لحديث رسول الله ﷺ

أم الشافعي أم أحمد بن حنبل ؟ أم الثوري والأوزاعي والليث بن سعد ؟ مَن من هؤلاء ؟ أم فقهاء الأمة فقهاء التابعين؟ سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري ، مَن منهم ؟

لا يمكن أن يكذب واحد من هؤلاء ! هؤلاء هم الذين اشترطوا الأسانيد ، الإسناد مما اختصَّت به هذه الأمة ، لو ذهبنا

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ٥٦١ .

إلى اليهود أو النصارى ما وجدنا عندهم أسانيد حتى لكتبهم الأصلية ، التوراة ليس لها سند ، لم تثبت لا بالتواتر ولا بالآحاد ، ولذلك حُرِّفت وبُدِّلت ، حتى الأناجيل الأربعة الموجودة ، أين النسخة الأصلية من الإنجيل المكتوبة باللغة الأصلية عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ؟ لا توجد ، لا توجد إلا الترجمات التي كُتبت بعد المسيح بعشرات السنين ، وهذا باعترافهم أنفسهم ، فالإسناد من خصائص هذه الأمة .

قال ابن سيرين كما روى الإمام مسلم في مقدِّمة صحيحه قال : الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء[1]. لولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء .

ولذلك حدَّث أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني عبد الله بن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمن ، الحديث الذي جاء : « إن من البرِّ بعد البر : أن تصلِّي لأبويك مع صلاتك ، وتصوم لهما مع صومك ».

قال : فقال عبد الله : يا أبا إسحاق ، عمَّن هذا ؟ قال : قلتُ له : هذا من حديث شهاب بن خِراش .

فقال : ثقة ، عمَّن؟ قال : قلتُ : عن الحجاج بن دينار .

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (١/١٥) .

قال : ثقة ، عمَّن ؟ قال : قلتُ : قال رسول الله ﷺ .

قال : يا أبا إسحاق ، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ، ولكن ليس في الصدقة اختلاف[1].

هناك مسافة زمنية طويلة ، أين هو وأين رسول الله ﷺ؟ ألا يستحي هؤلاء الذين يَدَّعون هذا ؟ ألا يرجعون إلى تاريخ هذه الأمة فيعرفوا ماذا صنع علماء الأمة ، منذ عهد الصحابة والتابعين ؟ كيف رحلوا في طلب الحديث ؟ لم تعرف الدنيا في تاريخ العلم أناسًا رحلوا في طلب العلم كما فعل علماء المسلمين في طلب الحديث .

جابر بن عبد الله ذهب إلى الشام شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا ليسمع حديثًا من عبد الله بن أنيس ، قال جابر بن عبد الله : بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه . قال : فابتعتُ بعيرا فشددتُ عليه رحلي ، فسرتُ إليه شهرا حتى أتيتُ الشام ، فإذا هو عبد الله ابن أنيس الأنصاري قال : فأرسلتُ إليه جابرا على الباب .

قال : فرجع إليَّ الرسولُ فقال : جابر بن عبد الله؟ فقلتُ : نعم .

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (١/١٦) .

قال : فرجع الرسول إليه ، فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقته .

قال : قلت : حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم ، لم أسمعه ، فخشيتُ أن أموت أو تموتَ قبل أن أسمعه .

فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله العباد عراة غرلا بهما . . . » الحديث[1].

ويخرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فلما قدم أتى منزل مسلمة ابن مخلد الأنصاري ، وهو أمير مصر ، فأخبر به فخرج إليه فعانقه ، وقال : ما جاء بك ، يا أبا أيوب؟

قال : حديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم يبقَ أحد سمعه غيري وغير عقبة ، فابعث مَن يدلُّني على منزله . قال : فبعث معه مَن يدلُّه على منزل عقبة ، فأخبر عقبة به ، فخرج إليه فعانقه ، وقال : ما جاء بك ، يا أبا أيوب؟

فقال : حديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم يبقَ أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن . قال : نعم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَن ستر مؤمنا في الدنيا على خربه ستره الله يوم القيامة ».

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٤٣٧/٢) وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي .

فقال له أبو أيوب : صدقت . ثم انصرف أبو أيوب[1].

هكذا كان الصحابة ، والتابعون كذلك ، يقول سيد التابعين سعيد بن المسيب : إن كنتُ لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد[2]!

وحدَّث عامر الشعبي بحديث : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . . .» ، ثم قال الشعبي : «وأعطيتُكها بغير شيء ، وقد كان الرجل يرحل في أهون منها إلى المدينة»[3] يريد أن يقول له : خذها عفواً صفواً بدون تعب ولا مشقة (خذها مجانًا) ، أما نحن فكنا نتعب فيما هو أقل منها ، ونقطع فيما دونها المفازات .

كلُّ هذا في سبيل الله ، ومن أجل طلب العلم .

انظروا إلى رحلات علماء الحديث كيف رحلوا ؟ الإمام أحمد بن حنبل ذهب إلى اليمن ولم يكن عنده مال ليكتري

---

(١) رواه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث (٣٤) .

(٢) المصدر السابق (٤١) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) ، ومسلم في الإيمان (١٥٤) ، وتتمته : « رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فآمن به واتبعه وصدق به فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله ـ عز وجل ـ عليه وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ، ثم أدبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران».

راحلة يركب عليها ، فكان يكري نفسه لأصحاب القوافل حتى وصل إلى اليمن وسمع من عبد الرَّزَّاق ، ولما رجع ظهر به شحوبا بمكة ، وقد تبيَّن عليه النصب والتعب ، فقيل له : لقد شققتَ على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق . فقال : هين فيما استفدنا من عبد الرزاق[1].

الأمة لم تكن أمة (مغفلة) ، الصالح المغفل لا يؤخذ منه الحديث ، لأنه من أصحاب الغفلة ، ممكن أن يضحك عليه أحد من الناس؛ فيدسُّ له حديث وهو لا يدري ، فكانوا لا يأخذون إلا عن الوعاة .

هذا هو السبب الأول الذي جعل هؤلاء يطعنون في السنة ، ويشكِّكون فيها ، وهو الجهل : الجهل بالقرآن ، الجهل بالسنة ، والجهل بعلوم الحديث ، والجهل بتاريخ الحديث ورجاله ، والجهل بتاريخ الأمة وعلمائها ، فهذا الجهل سبب من الأسباب .

السبب الثاني : التحامل والحقد على الإسلام

كذلك من الأسباب التي دفعتهم للطعن في السنة والتشكيك فيها : التحامل والحقد على الإسلام ، وهذا نجده من المستشرقين والمبشِّرين ، وغير هؤلاء من تلاميذهم وفروخهم ،

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٤/٩) .

الذين يدَّعون العلمية والموضوعية والحياد ، ولكنهم للأسف متحاملون أشد التحامل ، لأن الأصل أن يبحث الإنسان وهو خالي الذهن ، يستدلُّ ثم يعتقد . ولكن هؤلاء يعتقدون ثم يستدلُّون ، كوَّن قبل أن يبحث ، عنده فكرة مسبقة عن الإسلام ، وعن القرآن والسنة ، ثم يبحث في الكتب ليتصيَّد أيَّ شيء يخدم فكرته ، فهو لا يبحث بحثًا موضوعيًّا ، ولا يقف من الحقيقة العلمية موقف الحياد والنزاهة ، لا ، بل هو يريد أن يستخدم كلَّ شيء ، ولذلك يأخذ الروايات الضعيفة ويترك الروايات الصحيحة ، يأخذ ببعض الكلمات ويترك باقيها ، يفسِّر العبارات والكلمات تفسيراً على غير حقيقتها .

أضرب لكم مثلاً على ذلك ، ابن سيرين يقول : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، ابن سيرين هذا من التابعين ، من فقهاء التابعين ومحدِّثيهم ، (ت١١٠هـ) ، يقول : لم يكونوا ـ أي الجيل الذي قبله ، يعني جيل أصحاب رسول الله ﷺ ـ يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سمُّوا لنا رجالكم ، فننظر إلى أهل السنة فنأخذ حديثهم ، وإلى أهل البدعة فلا نأخذ حديثهم[1]. فكانوا بعد ذلك لا يؤخذون الحديث إلا ممن يعرفوه .

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٧٨) .

ماذا يُفهم من كلمة : سمُّوا لنا رجالكم ؟ ماذا يفهم أيُّ إنسان يعرف التاريخ الإسلامي من كلمة : فلما وقعت الفتنة ؟ إنها الفتنة في زمن عثمان ، الفتنة التي سمَّاها الدكتور طه حسين (الفتنة الكبرى) ، يأتي أحد عتاتهم ويقول : الفتنة هنا فتنة وقعت سنة (١٣٠هـ) أيام الوليد بن عبد الملك ، وقد أخذ هذا من تاريخ الطبري من قوله : فلما هاجت الفتنة حصل كذا وكذا ، قرأ في تاريخ الطبري كلمة الفتنة فحملها على الفتنة الكبرى ، فلما بحث وجد أن الفتنة وقعت سنة (١٣٠هـ) ، وابن سيرين قائل هذا الكلام توفي سنة (١١٠هـ) ، فكيف يقول عن فتنة وقعت بعده؟! فقال : لا بد أن هذا الكلام موضوع على ابن سيرين .

انظروا : أهذه عقلية علمية ؟ المفهوم حقًّا أنه لما وقعت فتنة عثمان ، وأصبح هناك أهواء وشِيَع وأحزاب ، ودخل الداخلون في الإسلام ممن ليسوا بمخلصي النية في الإسلام ، أصبحوا يتحرَّون ، هذا هو المفهوم ، وهذا الذي تدلُّ عليه العبارة . رجل يخرج بالعبارة عن أصلها ، ثم يجد أن هذا ليس صحيحًا ، ويرى أنها ليست الفتنة ، فيأتي ويقول : إنها موضوعة ومكذوبة .

لماذا يفعل ويقول هذا ؟ لأن هذه الكلمة لو ثبتت لدلَّت على أن المسلمين بدءوا يتحرَّون عن الأسانيد من عهد مبكِّر ،

منذ عهد عثمان ﷺ ، هؤلاء لا يريدون أن يقولوا هذا ، هذه كلمة تهدم عليهم كلَّ ما يريدونه ، يريدون أن يقولوا إن البحث عن الإسناد جاء في عصر متأخِّر ، فهل هذا علم؟ هذا علم موظَّف لخدمة أهداف معيَّنة ، وهذا ليس من العلم في شيء ، فهناك تحامل منهم على سنة رسول الله ﷺ .

السبب الثالث : التبعية والتقليد

من الأسباب التي أدَّت إلى الطعن في السنة والتشكيك فيها أيضًا : التبعية والتقليد ، التبعية والتقليد لهؤلاء ، للأسف هناك كثيرون يقلِّدون المستشرقين ، حذو النعل بالنعل ، ما قاله (شاخت) و(جولد تسيهر) أو غيرهما هذا هو العلم الصراح ، فهم يأخذون أقوالهم دون مناقشة ، ولو كانت تافهة ، ولو كان ينقصها الدليل ، ولو كانت لا تقوم على رجلين ، إنما تقليد وتبعية مطلقة ، كما قال ﷺ : «حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه»[1] . ولع المغلوب بتقليد الغالب .

إعجاب هؤلاء بالمستشرقين جعلهم ينقلون عنهم ، وأحيانًا لا يصرِّحون بأنهم نقلوا ؛ لِيَدَّعُوا لأنفسهم الإبداع والابتكار والأصالة ، وكثيرًا ما اكتُشف هذا ، وعُرف أنهم ناقلون ، وليس

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ، عن أبي سعيد الخدري .

لهم من الابتكار شيء ، وليس لهم من الأصالة حظٌّ ، فهم مقلِّدون ، وأحيانًا يُراد إرضاء هؤلاء ؛ ليرضَوا عنهم ، وليس إرضاء هؤلاء بالشيء الهيِّن ، فهؤلاء يملكون أن يضرُّوا وينفعوا ، ويخفضوا ويرفعوا في نظرهم ، وهؤلاء طبعًا لهم تأثيرهم على جهات شتَّى ، يملكون تلميع الأشخاص وترفيعهم ، كم من أناس تافهين ضخَّموهم وتحدَّثوا عنهم ، فأصبحوا شيئًا مذكورًا !

ولا عجب أن عمل هؤلاء على إرضاء المستشرقين؛ لأن من وراء إرضاء المستشرقين غنائم ومكاسب مادية وأدبية . فهذا أيضًا من أسباب الطعن والتشكيك في السنة النبوية .

السبب الرابع : التسرع والادعاء والغرور

بعض الناس للأسف يسارع إلى الإنكار دون أن يدرُس ، ودون أن يرجع إلى الأصول ، ودون أن يرجع إلى الثقات من أهل العلم وأهل الاختصاص ، وقد قال تعالى : ﴿ **ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا** ﴾ (الفرقان:٥٩) ، ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل:٤٣) ﴿ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ (فاطر:١٤)، ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ** ﴾ (النساء:٨٣) ولكنه لا يرجع إلى أهل الذكر ، ولا يردُّ الأمر إلى أولي الأمر ، ويبادر ويسارع بالردِّ والإنكار .

كتبت منذ أكثر من عشرين سنة في مجلة العربي أردُّ على أحدهم ، وقد كتب فيها يهاجم بعض أحاديث في البخاري ، وقد ظنَّ أن هذه الأحاديث تنافي القرآن ، مثل حديث عائشة رضي الله عنها : كنتُ أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ، كلانا جُنُب ، ويخرج رأسه من المسجد وهو معتكف ، وأنا حائض فأغسله ، ويأمرني فأتَّزر ثم يباشرني وأنا حائض[1] .

يقول : هذا مخالف للقرآن ، لقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٢٢) ، وردَّ حديث البخاري .

ولو أن هذا المتسرِّع المتحامل على سنة النبي ﷺ رجع إلى تفسير الآية في سورة البقرة ، أو رجع إلى الحديث في صحيح البخاري ، وقرأ بعض الشروح : إرشاد الساري للقسطلاني ، أو عمدة القاري للعيني ، أو فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، أو أي شرح للحديث من كتاب آخر ، لعلم أن الإشكال محلول ؛ لأن الأمر بالاعتزال الذي جاء في الآية : لا يعني ألا يساكنها ولا يؤاكلها ولا يشاربها ، كما كانت تفعل اليهود ، فقد كان اليهود يفعلون ذلك ، إذا حاضت

---

(١) رواه البخاري في الحيض (٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١) .

المرأة تعزل عزلاً تامًّا ، بخلاف النصارى فهم لا يحرِّمون شيئًا ولا الجماع .

الإسلام جاء وسطا بينهما حرَّم الجماع فقط ، ولم يحرِّم المباشرة ، كما جاء في الحديث الصحيح : «اصنعوا كلَّ شيء إلا الجماع»[1] . فمن الممكن أن يعاشرها في هذه الحالة ولكن لا يجامعها ، يبعد عن موضع الأذى ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ (البقرة:٢٢٢) ، ابتعد عن الأذى وما عدا ذلك مباح .

وبهذا تتَّفق الآية مع الحديث ، ولكن المغرور المتسرِّع يردُّ ويكذِّب ، وهؤلاء ليس عندهم فضيلة تواضع العلماء ، فالعالم من شأنه التواضع ، وإذا حدث عنده ريبة أو شكٌّ في شيء لا يسارع بالإنكار ، وإنما يحاول أن يتثبَّت ، وأن يتعرَّف ماذا قال الناس قبله؟ هل معقول أن تصحح الأمة حديثًا منذ أربعة عشر قرنًا ، ويتلقَّاه بالقَبول محدِّثوها وفقهاؤها وأصوليُّوها وخواصها وعوامها ، وهو الوحيد الذي يستدرك على الأمة في أربعة عشر قرنًا !! ما هذا ؟ هذا الرجل يسمَّى بأمين وهو

---

(١) رواه مسلم في الحيض (٣٠٢) ، وأحمد (١٢٣٥٤) وأبو داود في الطهارة (٢٥٨) ، والترمذي في التفسير (٢٩٧٧) ، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٤٤) ، عن أنس .

ليس بأمين ، يردُّ أحاديث ما ردَّها أحد من الأمة ، ويقول : المسلمون وجدوا أن أيَّ شيء فيه تزكية أخلاقية ينسبونه إلى النبي ﷺ ، مثل حديث : «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده»[1].

سبحان الله ، هل مثل هذا الحديث يرد ؟ لماذا ؟ أيستبعد أن يقول النبي ﷺ هذا ؟ «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده» . حتى يقول : كلَّ كلمة زكية أو حكمة ينسبونها إلى النبي ﷺ ، حتى كلمة الجاهلية : انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .

والجاهلية كانت تقول هذه الكلمة على ظاهرها ، ومعناها : أن الإنسان يجب أن يكون مناصرًا لأبناء قبيلته في الحقِّ وفي الباطل ، في العدل وفي الظلم ، كما قال الشاعر العربي :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

طالما أنه من قبيلة عليه أن ينتصر لها ، ما يسأل عن ظالم أو مظلوم . يقولون : هذا رجل إذا غضب غضب له عشرة آلاف سيف ، لا يسألونه فيما غضب .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٠) ، ومسلم (٤٠) ، كلاهما في الإيمان ، عن عبد الله بن عمرو .

ولكن النبي ﷺ عندما قال هذه الكلمة ، لم يقلها على ما كانت عليه في الجاهلية ، وإنما عدَّل مفهومها ، ولذلك حينما قال : «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[1].

فزع الصحابة ، وقالوا : يا رسول الله ، ننصره مظلومًا ، فكيف ننصره ظالمًا؟ نعم هو كلام الجاهلية ، ولكن الإسلام عدَّل مفاهيمهم ، غرس في أنفسهم قيمًا جديدة ، ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (الأنعام:١٥٢) ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ (المائدة:٨).

فقال ﷺ : «تأخذ فوق يديه ، تمنعه من الظلم فذلك نصر له»[2] . انصر أخاك ظالما : أي تمنعه من الظلم ؛ لأنك نصرته على هواه وعلى شيطانه ، وقفتَ معه بالحقِّ ، بدل أن يجرَّ نفسه إلى النار ، فأنت تحميه من النار ، هذا هو النصر . فالنبي ﷺ عدَّل بهذا الحديث المفاهيم التي كانت سائدة في الجاهلية .

وكثيراً ما يزعم هؤلاء المغرورون المتطالون : أن هذا الحديث يعارض العقل ، وهذا الحديث يخالف العلم ، وهذا الحديث يصطدم بالواقع . كما ذكر صاحبنا هذا الأحاديث

---

(١) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) ، عن أنس .

(٢) الحديث السابق .

التي ذكرت أمورا وقعت في الدولة الإسلامية ، كأن كلَّ ما تنبَّأ به النبي ﷺ ووقع ، يعتبره مما وضعه الوضَّاعون ، وهذا جهل بالنبي ﷺ ، الذي يطلعه الله على ما يشاء ، فينبِّأ بالغيب بما أنبأه الله عزَّ وجلَّ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن:٢٦،٢٧) .

وهناك أمور نبَّأ بها النبي ﷺ فوقع بعضها في حياته ، مثل فتح اليمن[1] .

---

(١) رواه أحمد (١٨٦٩٤) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف لضعف ميمون أبي عبد الله ، والنسائي في الكبري في السير (٨٨٥٨) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠١٣٨) : رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات . وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٣٩٧/٧). عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ، أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، قال : وعرض لنا صخرة . . . فأخذ المعول فقال : « بسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ». ثم قال : « بسم الله » وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا » ثم قال : « بسم الله » وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن . . . .

وبعضها وقع بعد وفاته ، مثل قوله لعمار : « تقتلك الفئة الباغية »[1]، ومثل قوله عن الحسن : « إن ابني هذا يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[2]، وفتح ممالك كسرى وقيصر[3].

وبعضها أخبر بها النبي ﷺ ووقعت بعد ذلك بكثير ، مثل فتح القسطنطينية[4].

وأشياء أخبر بها ولا زالت تحدث في عصرنا ، نراها الآن ، مثل قوله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩١٦) ، وأحمد (٢٦٥٦٣) ، عن أم سلمة .

(٢) رواه البخاري في المناقب (٢٧٠٤) ، عن أبي بكرة .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه أحمد (٦٦٤٥) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٥/٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٩/٦) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل ، وهو ثقة . عن عبد الله ابن عمرو .

مسيرة كذا وكذا»[1] . أشياء كثيرة أخبر عنها ﷺ ، فسارع وادَّعى وتطاول عليها بالردِّ والإنكار .

كذلك كذَّب حديث قتال اليهود ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «لا تقوم الساعة ، حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا عبد الله ـ وفي رواية : «يا مسلم» ـ هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله . إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[2].

شكَّ الراوي ، الراوي حينما يتشكك في الكلمة ويقول : هل قال : «يا عبد الله» . أم قال : «يا مسلم» . فيذكر الروايتين بالشكِّ ، «يا عبد الله» أو «يا مسلم» . فهي الدقة والأمانة والتحري .

بعض الناس الذين كتبوا يطعنون على أصحِّ كتاب بعد كتاب الله تعالى ، وهو البخاري ، يرفضون هذا الحديث ويقولون : ليس معقولاً أن نقبل هذا الحديث ؛ لأننا بذلك

---

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨) ، وأحمد (٨٦٦٥) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) ، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢) ، عن أبي هريرة .

ننتظر ونترك اليهود حتى تقوم الساعة لنقاتلهم ، وننتظر حتى تحدث معجزة ينطق معها الحجر والشجر ويقول : « يا عبد الله أو يا مسلم ، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله ».

والحديث لا يدلُّ على هذا ، الحديث يقول : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا . . . » . ومعناه : إن هذا الأمر لا بدَّ أن يحدث ، وليس معناه أنه سوف يكون عند قيام الساعة ، ما قال الحديث هذا . وإنما يقول : إن المعركة بيننا وبين اليهود معركة حتمية وواقعة . هذا يدلُّنا على أن معركة لا بدَّ أن تدور بيننا وبين هؤلاء القوم ، يكون النصر فيها حليفًا للمسلمين ، وفي بعض الروايات : ليس فيها « لا تقوم الساعة ».

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « تقاتلكم اليهود ، فتسلَّطون عليهم ، ثم يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فاقتله »[1] . يعني تكون المعركة سجال بيننا وبينهم ، حتى تأتي المعركة الحاسمة ، التي ينتصر فيها الإسلام ، وهذه هي المعركة التي يدخل فيها المسلمون المعركة تحت لواء الإسلام ، وتحت راية القرآن ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المناقب (٢٩٢٥) ، ومسلم في الفتن (٢٩٢١) .

وتحت شعار العبودية لله تعالى ، ولذلك يقول الحجر والشجر : يا عبد الله أو يا مسلم . لا يقول : يا عربي ولا يا قومي . ولكن يقول : « يا عبد الله يا مسلم » ، يا مَن دخلت تحت راية الإسلام أو تحت شعار العبودية لله ، « يا عبد الله يا مسلم ، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله » .

أيقول الحجر ذلك بلسان الحال أم بلسانٍ المقال ؟ الله أعلم ، إنما المعنى الذي يفهمه كلُّ ذي حسٍّ بصير باللغة العربية ودلالاتها ، أن كلَّ شيء في هذه المعركة يكون مع المسلمين . حينما تنتصر يكون كلُّ شيء معك ، حينما يكون النصر لك ، وتكون الريح في اتجاهك . وحينما تكون الدولة عليك ، ويكون النصر لعدوك ، يكون كلُّ شيء ضدَّك ، حتى السلاح الذي في يديك ينقلب عليك . وهذا رأيناه ، رأيناه عام سبعة وستين ، كان الناس معهم أسلحة تسدُّ عين الشمس ، ولكن ما أغنت عنهم شيئًا ، كما قال المتنبي :

ولا تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وقال الطغرائي :

وقيمة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل إلا في يد البطل

كانت هناك دبابات تركوها لقمة سائغة ، لم يكلِّفوا أنفسهم أن يُشعلوا فيها عودًا من الكبريت ، تركوها ليأخذها اليهود غنيمة باردة .

حينما يكون النصر لك ، حينما تكون المعركة لك ، كلُّ شيء يكون في صفِّك ، يكون على عدوك الحجر والشجر ، يتكلَّم الشجر ، يتكلَّم الحجر ، يتكلَّم بالفعل ، الله أعلم . نحن أصبحنا في عصر ينطق فيه كلُّ شيء . أو يتكلَّم بلسان الحال ، العرب قالوا : لسان الحال أفصح من لسان المقال . كلُّ هذا جائز ، ولا شيء بعيد على قدرة الله ، فلماذا نردُّ حديثًا مثل هذا ؟ لأنهم مغرورون متطاولون .

بعضهم ردَّ حديث : « بني الإسلام على خمس »[1] ، رجل كان مسئولا كبيرًا في مصر قال عن هذا الحديث : حديث وضعه المستعمرون . لماذا ؟ قال : لأنه لم يذكر فيه الجهاد ، كيف؟ وكتب السنة لا تزال تذكره قرابة ثلاثة عشر قرن ونصف ، لأنه لم يذكر فيه الجهاد ؟!

فما رأيك في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) ، كلاهما في الإيمان ، عن ابن عمر .

لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون:١-١١) ، كل هذه الآيات ليس فيها ذكر الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٢-٤) ، وليس فيها ذكر الجهاد .

وقوله : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن

تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٦٣-٧٦) ، ليس فيها ذكر الصلاة ، فهل نرد القرآن نفسه ؟

لكل مقام مقال ، فالنبي ﷺ يذكر الأشياء التي هي المباني الأساسية والثابتة ، الجهاد يجب بأسبابه وبموجباته ، إنما الصلاة والصيام والزكاة والحج ، أركان ثابتة تُطلب من كلِّ إنسان ، في كلِّ وقت . للأسف أصبحنا مبتلين بكلِّ مَن هبَّ ودبَّ يضرب عن يمين وشمال ، أصبحت السنة غرضًا لكلِّ مَن معه سهم ، ومَن ليس معه سهم يشتري له سهمًا من المستشرقين والمستعمرين ويرمي ، فهذا التسرُّع والغرور من الأسباب التي تحمل هؤلاء على الطعن والتشكيك في السنة النبوية المطهرة .

السبب الخامس : إعطاء العقل أكثر من حقِّه

بعض الناس يعطون العقل أكثر من حقِّه ، فيردُّون كلَّ ما تستبعده عقولهم ، وما هو عقلك أيها الإنسان؟ عقل

الإنسان محدود بحدود ثقافته ، محدود بحدود بيئته ، بحدود زمانه ومكانه ، الإنسان إذا وقف أمام الحقائق الكبرى ، الحقائق الغيبية ، هذه تؤخذ من الوحي وتسلَّم ، ما دام ثبتت النبوة ، وصحَّت الرسالة ، وثبت أن محمدًا ﷺ رسولاً من الله يوحى إليه فليس لنا إلا السمع والطاعة .

من حقِّنا أن نبحث : هل محمد نبي أم ليس نبي ؟ لا بدَّ أن نبحث حتى نطمئن هل هو رسول الله أم لا ؟ هل يتكلَّم من عند نفسه أم يتكلم من عند الله سبحانه وتعالى؟ هل ينطق عن هواه أم ينطق عن الوحي؟ لا بدَّ أن تقوم لنا الأدلَّة العقلية على صحَّة نبوَّته ، هذا أمر يثبت بالعقل ، ولذلك قال علماؤنا : العقل أساس النقل .

الإسلام ليس فيه : اعتقد وأنت أعمى . وليس فيه : أغمض عينك ثم اتبعني . وإنما الإسلام فيه أثبت النبوة بالعقل ، بالمعجزة ، بالبينات ، فإذا ثبت أن هذا رسول من الله ، فما عليك بعد ذلك إلا أن تسمع وتطيع ، لم يعد لك بعد ذلك خيار ، ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا** ﴾ (الأحزاب:٣٦) ، فإذا تحدَّث عن أمور البرزخ ، عن نعيم القبر وعذابه ، عن أمور القيامة ، عن الموقف والحساب ، والصراط والميزان ، والجنة والنار ، وهذه الأمور ، فما عليك إلا أن تسلِّم .

إذا تحدَّث عن الله عزَّ وجلَّ ، عن أسمائه وصفاته وأفعاله ، فما عليك إلا أن تُسَلِّم . فعقلك عقل محدود ، ماذا تعرف عن نفسك أنت؟ إذا كنت لا تعرف عن نفسك إلا القليل ، هل تعرف كيف تفكر ، وكيف تتذكر ، وكيف تتخيل؟ لا نعرف .

أَلَّف العالم الكبير (ألكسيس كاريل) وهو أحد أقطاب العلم ، والحائز على جائزة نوبل في العلوم ، أَلَّف كتابًا سمَّاه (الإنسان ذلك المجهول) ، يقول فيه : هذا العصر وإن وصل الإنسان فيه إلى العلم ، ولكن الناس عرفوا الجمادات ، ولكنهم لم يعرفوا أنفسهم ، ما زال الإنسان مجهولاً ، ونتيجة هذا الجهل يقعون في أخطاء كثيرة ، في تعليم الإنسان ، وفي التشريع للإنسان ، وفي توجيه الإنسان ، نحن نجهل أنفسنا ، وهذا الكون الفسيح نعيش فيه نجهل من أسراره الكثير ، العلم الآن يقول نحن لا نعرف من الكون إلا ثلاثة في المائة (٣٪)، وسبعة وتسعون في المائة (٩٧٪) تعتبر أعماق سوداء في هذا الكون .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الحاقة:٣٨،٣٩) ، وما لا نبصره في هذا الكون أكثر مما نبصره ، ومع هذا يأتي بعض الناس ويردُّ كلَّ ما لا يروق له من عوالم الغيب ، لماذا ؟ لأن ـ حضرته ـ عقليته علمية ، والعقلية العلمية لا تقبل مثل هذا ، وتتَّهم العقلية الدينية بأنها عقلية غيبية ، تصدِّق كلَّ شيء ، العقلية

الدينية عقلية علمية ، الإسلام بالذات أعظم من يكوّن العقلية العلمية ، أعظم فلسفة ، وأعظم نظام يكوّن العقلية العلمية ، التي تدعو إلى النظر والتفكير ، وتعتبر التفكير عبادة وفريضة ، وترفض التقليد ، تقليد الآباء ، أو تقليد السادة والكبراء ، أو تقليد العوام من الناس ، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي ، عن حذيفة رضي الله عنه : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت . ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلموا »[1].

وترفض اتباع الظنِّ في موضع اليقين ؛ لأن الظن كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (يونس:٣٦) .

وترفض اتباع الهوى والعواطف : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (القصص:٥٠) .

وتدعو إلى الموضوعية والحيادية والنظر إلى البرهان في العقليات ، وإلى التجربة في الحسيات : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١) ، ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١).

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة عن رسول الله ﷺ (٢٠٠٧) ، والبزّار (٢٤٩/١) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١) .

هذا هو الإسلام الذي ينشئ العقلية العلمية ، ولكن لا بد من التسليم في أمور معيَّنة . هؤلاء أناس يدَّعون أنهم علميون ، وما هم من العلمية في شيء ، ولو جاء شيء عن طريق الغرب لقبلوه ، كثيراً ما يقبلوا خرافات غربية ، مثل : تحضير الأرواح ، وغيرها إذا جاءت من الغرب قبلوها للأسف !

السبب السادس : هزيمة المتغرِّبين أمام الحضارة الغربية

من الأسباب التي حملت هؤلاء أيضًا على الطعن والتشكيك في السنة النبوية الشريفة : هزيمتهم أمام الحضارة الغربية ، الهزيمة الرُّوحية ، والهزيمة النفسية .

إنهم ينظرون إلى هذه الحضارة ، أنها القمة والأوج ، وأن علينا أن نتتلمذ عليها ، فكلُّ ما يأتي من هذه الحضارة يجب أن يُقبل ، كلُّ ما تقوله فهو حقٌّ ، وكلُّ ما تفعله فهو جميل ، وكل ما تدعو إليه فهو صحيح ، لا ، نحن نرفض هذه العبودية للحضارة الغربية ، نحن نرفض أن نأخذ هذه الحضارة الغربية كما نادى بعض الناس : (بخيرها وشرِّها ، وحلوها ومرِّها ، وما يُحَبُّ منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب)[1] . بل ننتقي منها ، فنأخذ ما يوافقنا ، ونردُّ ما لا يوافقنا ، وأكثر ما يوافقنا في الحقيقة هي الناحية العلمية والتكنولوجية ، وهي بضاعتنا تردُّ إلينا .

---

(١) مستقبل الثقافة صـ٣٩، طبعة دار المعرفة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٦م.

الأصل أن المنهج الاستقرائي منهج إسلامي ، أخذه منا (روجر بيكون) و(فرنسيس بيكون) أخذوه عن الحضارة الإسلامية ، فنحن عندما نسترد المنهج العلمي والتكنولوجي إنما نسترد بضاعتنا .

إنما الذين يريدون أن يجعلونا عبيدًا للحضارة الغربية ، نقبل ما تقبل ، ونرد ما ترد ، فهم ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيدًا ، وأنا أسمِّيهم عبيدًا للحضارة الغربية ، وعبيد الفكر الغربي ، لا أسمِّيهم تلاميذ الفكر الغربي ؛ لأن التلميذ قد يناقش أستاذه ، وقد يردُّ عليه ، ولكن هؤلاء موقفهم من الحضارة الغربية أكثر من التتلمذ ، موقفهم موقف العبودية التي تقبل كلَّ شيء ، ولا تردُّ أيَّ شيء ، ولا تناقش أيَّ شيء ، هكذا رأيناهم ، هؤلاء إذن ارتضوا لأنفسهم العبودية ، ونحن لا نرضاها لأنفسنا ، لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرًّا . كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1].

لقد خلقنا الله أحرارًا ، وكرَّمنا الله بالإسلام ، فكيف نرضى أن نكون في موقف التابع الذليل ، وأن نمشي وراء القوم ، ونتَّبع سننهم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : « لتتبعنَّ سَنن مَن كان قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري (٣٣٨/١) .

حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم» . قلنا : يا رسول الله ، آليهود والنصارى؟ قال : « فمن »[1].

نحن الأمة القائدة ، مكاننا مكان الأستاذية في العالم ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣) ، هؤلاء الذين يطعنون في السنة ليس عندهم هدى ولا بصيرة ولا كتاب منير ، وإنما هم أذناب وأتباع مغرورون ، عندهم قشور من العلم ، لو أنصفوا لرجعوا إلى التلمذة ؛ ليتعلَّموا ويعرفوا قدر هذه السنة في دين الله ، وقدر علمائها ، علماء السنة ، وما بذلوا في خدمة هذه السنة ، وماذا قعَّدوا من قواعد ، وماذا أصَّلوا من أصول ، وما تركوا من تراث ، تراث ضخم تفخر به الإنسانية ، تراث السنة .

لقد أثَّر في كتب التاريخ والأدب منهج المحدِّثين ، ولذلك وجدنا الطبري وغيره يروي بالأسانيد ، ونجد في كتب الأدب ، رجل مثل الأصفهاني في كتاب الأغاني يروي أيضًا بالأسانيد ، ولكنهم في أسانيدهم لا يدقِّقون كما يدقِّق علماء الحديث ، يروون عن المجروحين وعن المجهولين ، وعن الهالكين . أما علماء الحديث فدققوا ومحصوا وميَّزوا ، ولذلك إذا أردنا أن نعرف السنة فلنعرفها من أهلها ومن رجالها .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) .

أما هؤلاء المشكِّكون ففي الحقيقة لا أجد عندهم إلا الجهل ، أردتُ أن أقرأ لكم بعضًا مما كتبوه ، وهي كتابات مملوءة بالأخطاء والمغالطات والتحاملات ، وينقل بعضهم عن بعض ، قضايا فُرغ منها فيعدونها جذعة ، حديث : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»[1]. يكتب بعضهم ويردد أن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ، ليحولِ بين أهل الشام والعراق وبين الحج إلى الكعبة ، وأنه أراد أن يُلبس عمله هذا ثوبًا دينًا ، فوضع له صديقه الزهري هذا الحديث .

وهذه قصة واهية ذكرها في الأصل المستشرقون مثل (جولد تسيهر) وغيره ، وقد ردَّ عليها أستاذنا الكبير والداعية العلامة الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) ، ردَّ عليها وفنَّدها ، وذكر الزهري ومكانته العلمية[2]. ثم يأتي هؤلاء بعد ذلك ينسون هذا كله ، ويخطفون الأمر خطفًا ، ويردِّدونه من جديد ، ويروِّجونه ، إذ ليس من المعقول أنه لم يقرأ هذا الكلام ، لابدَّ أنه قرأه وعرَفه .

السبب السابع : الرغبة في الظهور بمخالفة الإجماع

كذلك من الأسباب التي تحمل هؤلاء على الطعن في السنة والتشكيك فيها : حبُّ الظهور بمخالفة الإجماع . وَفق

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجمعة (١١٨٩) ، ومسلم في الحج (١٣٩٧) .

(٢) السنة ومكانتها في التشريع صـ ٢٣٢-٢٥١ .

ما يقول المثل المعروف : (خالف تُعرف) . وفي عصرنا مَن أراد أن يظهر ويُعْرَفُ بين الناس ، ويُشار له بالبنان عند أهل الصحف والإعلام وغيرهم : عليه أن يخالف ، خاصة في الأمور الإسلامية بالذات ، يخالف ما أجمع عليه المسلمون ، يخالف المعلوم من الدين بالضرورة ، فهذه أصبحت وسيلة من وسائل الشهرة ، وسُلَّمًا يرتقي عليه الراغبون في الظهور ، والأخذ بمكان الصدارة بين الناس .

التشكيك في مضمون السنة :

ومن الأمور التي أحبُّ أن أذكر شيئًا عنها ، ما قاله هذا الرجل صاحب كتاب (دليل المسلم الحزين) ، والذي ظلَّ يكتب في جريدة المصور المصرية مدَّة طويلة من الزمن : مشككًا في مضمون السنة ، بالتشكيك فيما تهدي إليه السنة ، التشكيك في آداب السنة ، يقول : هؤلاء الناس يحرِّمون الأكل (بالملاعق والسكاكين والشوك) ، وعلى (المنضدة) . وهذا افتراء !

مَن من المسلمين يحرِّم الأكل بالملعقة ، أو السكين ، أو الشوكة أو الأكل على المنضدة ؟ ما حرَّم أحد هذا ، هناك بعض الناس يحبُّ أن يفعل كما كان يفعل ابن عمر ، كان النبي ﷺ يأكل بيده فهو يأكل بيده[1] . إنما ما قال : إن هذا

---

(١) إشارة إلى ما رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٢٩٦) عن نافع قال : لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع أثر النبي ﷺ لقلت : هذا مجنون .

واجب . أو قال : إن من فعل غير هذا فقد ارتكب حراماً . ما رأيتُ أحداً يقول هذا ، فهؤلاء أناس كذَّابون ، هم يتحدَّثون عن الوضَّاعين ، وهم الوضَّاعون ! هم أكثر الناس دجلاً ، يكذبون على الخلق ، على الأحياء ، فكيف لا يكذبون على الأموات ؟!

كذلك ذكر أن أحاديث الأكل باليمين وعدم الأكل بالشمال ، مثل الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « لا يأكل أحدكم بشماله ، ولا يشربنَّ بشماله ؛ فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله »[1]. إنها أحاديث يمجُّها المنطق والعقل السليم ، لماذا ؟ في الحقيقة كنتُ أودُّ أن أقرأ لكم مما كتبه رجل اهتدى إلى الإسلام من عشرات السنين ، وسمَّى نفسه (محمد أسد) ، وله عدَّة كتب منها : (الإسلام على مفترق الطرق) ، و(منهاج الإسلام في الحكم) ، و(الطريق إلى مكة) ، ومجموعة كتب أخرى . في الحقيقة الرجل كتب في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) كتب فصلين عن السنة[2]، وبين : أن هؤلاء الذين يقولون نكتفي بالقرآن عن السنة هؤلاء مخطئون .

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠) ، و أحمد (٤٨٨٦) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٦) .

(٢) انظر : الإسلام على مفترق الطرق صـ ٨٧-١١٠ ، طبعة : دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ، ترجمة عمر فروخ .

وقال : مَن يقول هذا كمن يقول : أريد أن أدخل هذا القصر ، ولكنه يرفض المفتاح الوحيد الذي يمكن به الدخول إلى هذا القصر ، والمفتاح الوحيد لباب القصر ، الإسلام والقرآن هو السنة ، لا يمكن أن يكون قرآن من غير سنة[1].

ونقل عن الآداب الإسلامية التي جاءت عن النبي ﷺ ، وذكر فيها أشياء أنا أنصح كل مسلم أن يقرأ هذا ، لأنه كلام طويل ، ومن ضمن ما قاله : هناك على ما أعلم ثلاثة أسباب بينة على الأقل لإقامة السنة :

السبب الأول : الناحية الفردية

(السنة تمرِّن الإنسان بطريقة منظَّمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس ، فإن الأعمال والعادات التي تقع عفو الساعة تقوم في طريق التقدُّم الرُّوحي للإنسان ، كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة ، إن هذه الأعمال والعادات يجب أن تقلَّ إلى أقصى حدودها ، لأنها تتلف التوجيه الروحي للفكر ، فكلُّ شيء نفعله يجب أن يكون مقدوراً بإرادتنا وخاضعًا لمراقبتنا الروحية) [2].

يريد أن يقول : يجب عليك أن تعمل العمل وأنت قاصد .

---

(١) انظر الإسلام على مفترق الطرق صـ ٩١ .

(٢) المصدر السابق صـ ١٠٤.

القرآن الكريم يقول : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ (لقمان:١٩) ، وبعض الناس يمشي ، ولا يدري لِمَ يمشي ، ولا إلى أين يمشي؟ لا ، يجب أن تدري ماذا تفعل ، ولماذا تفعل؟

بعض الناس يأكل باليمين وكذلك بالشمال ، ولكن المسلم يأكل باليد اليمنى ، وهو يعرف لماذا يأكل بها . لأن فيها تفاؤل ، والنبي ﷺ كان يحبُّ التفاؤل في كلِّ شيء[١] . يريد أن نكون من أهل اليمين ، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم يوم العرض على الله في الآخرة ، المسلم يأكل باليمين بقصد ؛ لأن النبي ﷺ كان يأكل باليمين ، فقد قال ﷺ لعمرو بن أبي سلمة ، وكانت يده تطيش في الصحفة : « يا غلام ، سمِّ الله ، وكُلْ بيمينك ، وكُلْ مما يليك »[٢] .

وعن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله ، فقال : « كل بيمينك » . قال : لا أستطيع . فقال : « لا استطعت ، ما منعه إلا الكبر » فما رفعها إلى فيه[٣] . دعا عليه ﷺ فقد كان كذَّابا متكبِّرًا .

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه : رواه البخاري في الطب (٥٧٥٥) ، ومسلم في السلام (٢٢٢٣) ، عن أبي هريرة : « لا عدوى ، ولا طيرة ، وأحب الفأل الصالح » .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢) ، عن عمر بن أبي سلمة .

(٣) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١) ، وأحمد (١٦٤٩٣) .

المسلم يقوم بهذه الأعمال وهو في حالة وعي ، يعرف لماذا يفعلها ، لماذا يأكل باليمين؟ وفي النعل ، لماذا يقدِّم الرجل اليمنى؟ ولماذا يدخل الخلاء برجله اليسرى؟ وهكذا . لا بد أن يكون في حالة وعي لِمَ يفعل ، عنده يقظة داخلية ، وهذا فعل الإنسان الراقي ، الذي يتميَّز به عن غيره من الناس .

ثم يقول (محمد أسد) : (إن الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب ، ولكنها تشمل فعل حياتنا كلِّها ، أما أهدافنا فهو جمع ذاتيتنا الرُّوحية وذاتنا المادية في (كلٍّ) واحد .

من أجل ذلك وجب أن تكون جهودنا موجَّهة بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشّط في حياتنا على غير وعي منا ، وغير خضوع لسيطرتنا ، فنزيلها بالقدر الذي تتحمَّله طاقة البشر .

إن محاسبة النفس هي أولى الخطوات في هذا السبيل ، وإن أوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس : أن تخضع أعمالنا التي تجري في حياتنا اليومية بحكم العادة ، وبغير مبالاة ظاهرة ، للمراقبة . إن هذه (الصغائر) وتلك التقاليد والعادات (القليلة الأهمية) هي في الحقيقة فيما يتعلَّق بالمران العقلي الذي نتكلَّم عنه ، أكثر أهمية من أوجه النشاط (العظمى) في حياتنا ، إذ أن الأمور (العظمى) بالإضافة إلى عظمها ، تبقى دائمًا بادية بوضوح ، وتظلُّ غالبًا في نطاق وعينا . ولكن تلك الأمور الصغيرة تغرب بسهولة عن بالنا ،

وتخدعنا عن مراقبتنا لها . من أجل ذلك كانت تلك الصغائر أشياء أكثر نفعًا لنا في شحذ قوة ضبط النفس فينا)[1].

السبب الثاني : الناحية الاجتماعية

من ناحية أخرى بيَّن أهمية العمل بالسنة من الناحية الاجتماعية والنفع الاجتماعي ، إذ هي تكوِّن الذوق المشترك للأمة ، الأدب المشترك للأمة ، الأمم الحريصة على شخصيَّتها ، على استقلالها ، على ذاتيَّتها ، دائمًا تحبُّ أن تكون متميِّزة ، انظروا إلى الإنجليز : الإنجليز الآن مخالفون العالم كله ، الناس الآن يمشون باليمين ، وهم يمشون بالشمال ، السيارات في العالم عجلة القيادة (الدركسيون) في ناحية اليمن ، ولكن الإنجليز خالفوا العالم في ذلك ومقود سيارتهم ناحية الشمال ، تقاليد تميزوا بها .

المسلمون فقط هم الذين يُراد لهم ألا تكون لهم تقاليد وعادات تتميَّز بها شخصيَّتهم عن غيرها من الأمم ، لا يُراد لهم أن تكون لهم آداب مشتركة ، يريدون أن نكون أذنابًا لغيرنا ، نتَّبع منهم كلَّ ناعق هنا وهناك .

هذه الآداب هي التي تكوِّن وتميِّز الشخصية الإسلامية ، تميِّز شخصية الفرد المسلم ، وشخصية الجماعة المسلمة ، هذا هو شأن الإنسان المسلم : أنه إنسان متميِّز ، وهذا ما جاءت به السنة .

---

(١) الإسلام على مفترق طرق صـ ١٠٤- ١٠٥

عن علي بن شداد بن أوس ، عن أبيه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خالفوا اليهود ، وصلُّوا في نعالكم ، فإنهم لا يصلُّون في نعالهم ولا في خفافهم »[1].

وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم »[2].

وعن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « خالفوا المشركين ، وفِّروا اللحى ، وأحفوا الشوارب »[3] . وكان ابن عمر إذا حجَّ أو اعتمر قبض على لحيته ، فما فضل أخذه .

كل هذا المقصود به التميُّز لشخصية الفرد ، وشخصية الأمة بحيث تستطيع أن تعرف المسلم من غير المسلم لأول وهلة ، بمجرَّد أن ترى اثنين تقابلا فقال أحدها للآخر :السلام عليكم. فيرد عليه : وعليكم السلام ورحمة الله . تعلم أنهما مسلمين ، حتى في البلاد الأعجمية التي لا تعرف العربية ، تستطيع أن

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (٦٥٢) ، والبزار (٣٤٨٠) ، وابن حبان في الصلاة (٢١٨٦) ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٦٥٩) ، عن شداد بن أوس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في حديث الأنبياء (٣٤٦٢) ورواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٠٣) ، عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في اللباس (٥٨٩٢) ، ومسلم في الطهارة (٢٥٩) .

تتعرَّف على المسلم فيها من خلال هذه الآداب التي جاءت بها السنة النبوية : إلقاء السلام ورده ، البدء بالتسمية عند الطعام ، حمد الله بعد الفراغ منه ، والأكل باليمين ، تشميت العاطس . كلُّ هذه آداب يتميَّز ويعرف بها المسلم في كلِّ مكان وزمان ، ولكن الذين يطعنون في السنة يريدون لنا أن نتنازل عن شخصيَّتنا ، وأن نذوب في غيرنا ، ولا يبقى لنا شيء نتميَّز به.

يقولون لك : وما فائدة الأكل باليمين ، طالما أن اليسرى نظيفة ؟

ويقولون : ما فائدة تشميت العاطس؟ ما فائدة أن يقول العاطس : الحمد لله . ويرد عليه مَن سمعه : يرحمك الله؟ سبحان الله ! الإسلام يريد أن يربط بين الإنسان وربِّه ، وكذلك بين الإنسان والإنسان بأدنى رباط ، ينشئ تجاوب بين الناس بأقلِّ الألفاظ والكلمات، يعمل على تبادل المشاعر والعواطف، حتى يظلَّ المجتمع متماسكًا ، بعيدًا عن النزاع والعداء[1].

السبب الثالث : الناحية العملية التطبيقية

(ثم نأتي إلى الناحية الثالثة من السنة ، وإلى التشدُّد بالعمل بها . في هذا النظام من العمل بالسنة يكون كلُّ شيء في حياتنا اليومية مبنيًّا على الاقتداء بما فعله الرسول ﷺ ، وهكذا

(١) راجع الإسلام على مفترق الطرق صـ ١٠٧- ١٠٩

نكون دائمًا إذا فعلنا أو تركنا ذلك ، مجبرين على أن نفكِّر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه .

وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حدٍّ بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طوال الحياة . ذلك يقودنا عن وعي منا أو عن غير وعي إلى أن ندرس موقف النبي ﷺ في كلِّ أمر ، فحينئذ نتعلَّم أن ننظر إليه ، لا على أنه صاحب وحي أدبي فقط ، بل على أنه الهادي إلى الحياة الكاملة أيضًا .

وقبل أن نتزحزح عن هذه النقطة ، يجب أن نجزم فيما إذا كنا نعدُّ النبي ﷺ رجلا حكيمًا كغيره من الحكماء ، أو أنه رسول الله الأسمى ، الذي يعمل دائمًا بوحي إلهي . إن نظرة القرآن الكريم إلى هذا الأمر واضحة إلى حدٍّ أنها تجعل كلَّ سوء فَهم لها غير ممكن .

إن الرجل الذي أرسل (رحمة للعالمين) لا يمكن إلا أن يكون موحي إليه على الدوام ، فإذا أبينا عليه هداه ، أو أبينا بعض عناصر هذا الهدى ، فإن هذا لا يعني شيئًا أقل من أننا نأبى رحمة الله أو نبخسها حقَّها ، ويعني فوق ذلك ـ إذا تابعنا هذه الفكرة منطقيًّا ـ أن الرسالة التي جاء بها الإسلام لم تكنْ حتى بمجموعها الحل النهائي لقضايا البشر ، بل كانت حلاً آخر قد يكون مساويًا له في الصحَّة والفائدة ، وإن المفاضلة

بين هذين الحلَّين قد تركت لفطنتنا نحن ، هذا المبدأ الهيِّن لأنه لا يجبرنا أدبيًّا ولا عمليًّا على أن نجزم بشيء مطلقًا ـ قد يقودنا إلى مكان ، ولكنه بكلِّ تأكيد لا يقودنا إلى روح الإسلام ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣)

نحن نعدُّ الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية؛ لأنه يشمل الحياة بأسرها : إنه يهتمُّ اهتمامًا واحدًا بالدنيا والآخرة ، وبالنفس والجسد ، وبالفرد وبالمجتمع ، إنه لا يهتمُّ فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجود الإمكان إلى السمو ، بل يهتمُّ أيضًا لما فيها من قيود طبيعية .

إنه لا يحملنا على طلب المحال ، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد ، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة ، حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي والعمل .

إنه ليس سبيلاً بين السبل ، ولكنه السبيل ، وإن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هاديا من الهداة ، ولكنه الهادي ، فاتباعه في كلِّ فعل وأمر اتباع للإسلام بعينه ، وأما اطِّراح سنَّته فهو اطِّراح لحقيقة الإسلام)[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الإسلام على مفترق طرق) صـ ٩٩- ١١٠ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
السنة ومواجهة حملات التشكيك	٣
الإسلام يُغْزَى ويُهَاجَم في عقر داره	٣
تعرض السنة للطعن والتشكيك من أعداء الإسلام	٤
واجبنا نحو السنة النبوية	٨
أسباب الطعن والتشكيك في السنة	١٢
السبب الأول : الجهل	١٢
الشروط التي تقبل بها الرواية	١٧
السبب الثاني : التحامل والحقد على الإسلام	٣٠
السبب الثالث : التبعية والتقليد	٣٣
السبب الرابع : التسرع والادعاء والغرور	٣٤
السبب الخامس : إعطاء العقل أكثر من حقِّه	٤٦
السبب السادس: هزيمة المتغرِّبين أمام الحضارة الغربية	٥٠
السبب السابع : الرغبة في الظهور بمخالفة الإجماع	٥٣
التشكيك في مضمون السنة	٥٤
السبب الأول : الناحية الفردية	٥٦
السبب الثاني : الناحية الاجتماعية	٥٩
السبب الثالث : الناحية العملية التطبيقية	٦١
الفهرس	٦٤